ويأخذه المرشدان ويدخلان به الغاب ويران في طريق كثيرة المتعاريج الى ان يصلا به الى بيت كبير محاط بالاشجار من كل ناحية حتى لا يرى منه شيء وحوله سور قائم له باب واحد فيدخل الرجلان ويتركانه عند هذا الباب ثم يخرج رجل آخر ويأمره ان يدخل بعد ان يعهد ان لا يبوح لامرأة ولا ولد ولا لاحد بشيء مما يرى ويسمع والا خدمة فقدر ويدخل الباب فيجد الدار امامه مملوءة برجال قبيلته وهم بالسلاح الكامل فيزحمونه ويدعونه باسم الجديد ويهنئونه لانه جاز كل درجات الامتحان . ثم يؤتى به الى باب البيت فيرى الدكك واقفاً في صدر البيت وامامه شيخ قبيلته وتفرز من نخبة رجالها قعود على الارض فيسلم بخشوع ورمح ونبوت وقناس ويؤمر ان يستعمل هذه الاسلحة بمهارة الكي يحق له الجلوس داخل البيت مع الذين فيه . ثم يرفعون ترنيمة انصلت اليهم من اسلافهم ويبتدئ الوقوف في الدار صوت الترنيم وهم لا يفهمون شيئاً مما يقولون

ويوصى ان يعلم الناس بوجود ارواح شريرة تترصدهم في النهار والليل وانما هو غلا يعتقد الا بوجود روح واحدة وهي روح النار المختفية في البراكين . ومتى أتيح له الجلوس مع النفر الجلوس في البيت يخبر انه لا يوجد ارواح شريرة لا في النار ولا في غيرها ولا يوجد شيء غير منظور يخشاه . وكل ما يؤمنون به الجمهور انما هو وسائط للتسلط عليهم

رسائل النيل [1]

الرسالة الاولى من القاهرة الى الواسطة

حييت ايها النيل المبارك فلكم جنى الانسان منك من الخيرات ولكم حملت بقوق ظهرك من الجواري المنشئات . من ايام الفراعنة الاولين الى ان خاضت عبابك بواخر المتأخرين تستحمك تيارك وتستضعف اقتدارك . ولقد كانت سفن الاولين للعبة الجنود وحقد الخزانة وكان زمامها مسلماً اليك والى الرياح العواصف والما بواخر المتأخرين فاخضعت بما بنيت له حمل السياح ورجال البحث والاكتشاف الذين يتناطرون الى هذا القطر عاماً بعد عام لمشاهدة آثار ملوكك الاولين وما كانوا عليه من العز والسؤدد . وقد جمعت في هذه

(١) نشرت هذه الرسائل في المقطم اولاً وقد رأينا ان نثبت هنا ما فيها من الامور التاريخية والعلمية ونضيف اليها ما تم الفائدة به من الرسوم والاشكال والشرح التاريخي

الواخر نتائج علوم المتقدمين والمتأخرين من ايام ارخيدس وهيرون الى بابن ووطو ودافي وقاتن

ولقد ركبت امس الباخرة المسماة هتسو بدعوة من الشهير كوك ورفاقه وكان فيها نيف وعشرون راكباً فقامت بنا من مرساها في القاهرة قبل الظهر بساعتين تشق عباب النيل بقوة حرارة الشمس المذخورة في طبقات الفحم الحجري منذ الزمن من السنين ولم تسر بنا الا رمية سهم حتى انتشرت السحب فوق رؤوسنا متراكمة وامطرتنا السماء رذاذاً ثم طلاً ثم وابلاً منهمراً وحمل تيار النيل علينا واستجد بالجنوب فجاءنه بخيلها ورجلها فصادمتها فتسنم صيام الابطال وظلت تجد السير الى ان رست بنا امام الواسطة نحو الساعة الثانية بعد المغيب . ومررنا في اثناء الطريق على نخب آثار المتقدمين والمتأخرين ومشاهد عظيم واقتدارهم . فلم نجتز القاهرة حتى بدت عن يسارنا اطلال الفسطاط كرسي الديار المصرية بعد الفتح الاسلامي . وقد اخنى عليها الدهر فلم يبق منها الا طللاً بالياً وركاماً من التراب والرضام . ورأينا عن يميننا روض الجيزة باشجاره الغياء وقصوره الفيحاء ثم غابة وقف النخيل بها كالغيد الحسان وانتشرت غدائرها الى العلى فانتظمت حول رؤوسها كالتيجان . واطلت علينا الاهرام بحسب اتساقها من الجيزة الى ابو صير فسقارة فدهشور وهي تناطح السحاب . وتنفض عنها غبار الدهر كما تنفضت جناحيها العقاب . والمقام عن اليسار محفوف بالمهابة والاجلال يذكرنا قول ابي الطيب حيث قال

وسمنا بها البيداء حتى تغمرت من النيل واستذرت بظل المقطم

ثم مررنا بامام طره وحلوان ودساكر أخرى اشهرها الطفيح حيث كانت لمدينة هاتور المة المصريين الاقدمين المعدودة عندهم مثل الزهرة عند اليونانيين والرومانيين

اما الضفة الغربية فعليها اولاً قرية البدرشين ومنية رهينة وبجانبها ما ابقاه الدهر واتاؤه من آثار منف القديمة كرسي مصر في ايام الفراعنة واعظم مدينة بين مدن المتقدمين والى غربيها اهرام سقارة ومدفن العجول المقدسة وعلى نحو ٣ اميالاً الى الجنوب من البدرشين ينعطف النيل من الشرق بسد من التراب يقال انه صناعي لا طبيعي وان بناه اول ملك من ملوك مصر اقامه ليصد به النيل عن مدينة منف . وقبل ان يبلغنا الواسطة والمنيدة جلى الظلام رأينا هرم ميدوم الذي يظن البعض انه من ايام الملك سنفرو آخر ملوك الدولة الثالثة وكان هناك مدينة قديمة اسمها مي نوم لم يبق منها الا شيء من مدافن اهلها

ومن يطلع على آثار هذه البلاد ويستدل منها على عظمتها السالفة ثم يطالع تاريخ اهوالها

وما مرّ عليها من البؤس بعد النعيم والشقاء بعد الرخاء يحسب ان البلاد كالعباد تشبُّ وتشيبُ ثم يتولاّها الانحلال والاضمحلال شأن اكثر الموجودات الآليّة . ولكنهُ اذا اعتبر ان نوع الانسان ممتاز على بقيّة انواع الاحياء وان فيهِ جوهرًا خالدًا علم ان الثغرة التي تتولاهُ احيانًا بجوْر حكامهِ وفساد احكامهِ لا تقضي عليهِ قضاء ابديًّا بل تسكّن عوامل نموهِ الى ان يفيض لهُ الله زمانًا تنفرج فيهِ الشدة ويزال الرماد الذي خبت تحتهُ نار الهمم فتستفيق النفوس وتشتدُّ العزائم وتظهر نوابغ الامة وقادتها فيردُّون اليها سالف مجدها ويبنون عليهِ عزًّا رفيعًا . هذا رجاء مصر والمصريين في امرهم وامجادهِ ووزيرهِ ورجالهِ ورجاء جميع العثمانيين في سلطانهم الاعظم ومدبري دولتهِ . واسباب التقدم والعمران ميسورة لديهم فليس عليهم الاّ ان يمدوا ايديهم اليها بهمة صادقة وعزيمة ماضية . وقد رأى هذا القطر في العشر السنين الماضية من فوائد الاصلاح وحسن الادارة ما ينضي بتحقيق الآمال اذا بقيت امورهُ سائرة على هذا المنوال وبقي نيلهُ المبارك يتدفق بالخيرات كما كان في عهد ملوكهِ الاقدمين

الرسالة الثانية من الواسطة الى اسيوط

الواسطة على خمسة وخمسين ميلاً من القاهرة بلغناها غلسًا وبتنا امامها ولم ندخلها وبارحناها قبل ان لاح ذنب السرحان ومررنا امام بني سويف ولقد وددتُ لو وقفنا فيها وقابلت بين ما هي عليهِ الآن وما كانت عليهِ في عهد الرحالة الشهير ليون الافريقي حين كانت تكفي بالتجبها الكنانية القطر المصري على قولهِ وترسل ما فضل الى بلاد تونس . ومررنا على قرى وديار كثيرة بطول وصفها والارض حولها مفروشة بالسندس ومعممة بالنخيل

وظلت السفينة سائرة سيرًا حثيثًا الى ان توارت الشمس في الحجاب وارتفع الجبّار وترصعت السماء بالنجوم الزاهرة بين سيّار ثابت النور وثابت متألقهِ . وانّى يكون ثابتًا وكلهم في فلك يسبحون . وهذه الكواكب عينها قد اطلّت على قدماء المصريين فرأوا فيها قدرة الخالق وعظمتهُ من غير منظار ولا آلة لحل النور ثم رأت بعدهم أمم الارض تتعاقب على هذه الديار ويطويها الدهر ولسان حالهِ يقول كل مَن عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذي الجلال والاكرام

وفي نحو الهزيع الثاني رست بنا الباخرة امام المنيا وهي منية ابن خصيب التي ذكرها السلطان المؤيد ابو الفدا في تقويم البلدان وقال ان بها اسواقًا وحمامات وجامعًا ومدارس للمالكيّة والشافعيّة . واسم المنية بالقبطيّة موني وباللسان المصري القديم خوفومنت ومعناها في

الاثنين منزل ومنها كملة منية ومت في صدر كثير من اسماء البلدان المصريّة وذكر ليون الافريقي المنيا في اوائل القرن السادس عشر وقال انها كانت كثيرة الفاكهة فترسل الفاكهة منها الى القاهرة . وكان بها كثير من المباني الفخيمة واهلها اغنياء يتجرون مع البلاد البعيدة وتمتد تجارتهم الى السودان

وقبل الفجر اطلقت السفينة عنان التيار وقامت بنا تشقّ عباب الماء الى ان قابلنا قبور بني حسن فرست جنوبيّها وركبنا وسرنا شمالاً الى ان بلغنا صخر الاكمة التي فيها المدافن فترجلنا وصعدنا فيها على منحدر من الرمل والحصى والحجارة الكلسيّة ذات الاصداف الى ان بلغنا المدافن وزرناها واحدًا واحدًا

وهنا لا اعلم كيف اشرع في الشرح او استرسل في الوصف أأطنب في مهارة الذين نحتوا هذه المدافن بل المنازل الفسيحة في صلد الصخر واحكموا وضعها ونقشها وتزويقها . ام ابالغ في تدبّن المصريين القدماء الذين اعتبروا نفوسهم اكثر مما اعتبروا اجسادهم وانشأوا لموتاهم منازل افضل من منازل الاحياء اتقانًا ورونقًا واثبت منها على نوائب الزمان . ام اغالي في لوم الذين لم يستطيعوا حفظ هذه الآثار بل اعتدوا عليها بانفسهم وخدشوا بهجتها ونقبوا جدرانها لكي يستخرجوا منها بعض الكتابات القديمة ويتجروا بها

والظاهر ان هذه القبور كانت لعائلة واحدة من العيال المصريّة القديمة التي استولت على البلاد المجاورة في ايام الدولة الثانية عشرة من الدول المصرية والشمالي منها لرئيس هذه العائلة واسمهُ امني امنحات وهو غرفة فسيحة مربعة منحوتة في الصخر فيها اربعة اعمدة ارتفاع كلّ منها اكثر من خمسة امتار ومحيطه نحو ثلاثة وعليها شبه عضائد لحمل السقف وما هي الاّ منهُ فكأنها صنعت لتحاكي البيوت المقوّة بالحجر على عضائد من الخشب والسقف بين هذه العضائد مقعّر تقعيرًا انبويًّا ومغشّى بالنقوش . ولكلّ عمود من الاعمدة ١٦ سطحًا متساوية ممتدة على طوله عرض كل منها نحو شبر وهو مقعّر قليلاً ومدهون بدهان ابيض واحمر يشبه المرمر المجزّع . وجدران الغرفة كلها مغطاة بالكتابات المصريّة القديمة والنقوش وفيها سيرة حياة امني ورسم اعماله المختلفة ويظهر منها انهُ كان من امراء مصر ورؤسائها كما ذكرنا وانهُ أُرسل بدل ابيهِ في قيادة جيش الى بلاد الحبشة في ايام الملك اوسرتسن الاول ثاني ملوك الدولة الثانية عشرة فعيّن نحوم ملكة مصر وعاد بالغنائم والهدايا وغزا غزوات أُخرى كثيرة

ومما جاء في هذه الكتابات قولهُ عن نفسهِ " لقد فعلتُ كل ما قالتْ وانني كريم رحيم

وحاكم يحب بلادهُ . ومرّت عليَّ السنون وانا متسلط على ماح . ووهبت مدبري الهيا كل ثلاثة آلاف نور وابتارها فارتفعت منزلتي في بلاط الملك ولم يغنني احد في الهدايا التي اهديها الى بلاطهِ . ولم احزن ولدًا في حياتي ولم اختلس مال الارملة ولم ازجر العامل ولم احبس الراعي ولم اسخّر احدًا من عمّال رجل ليس عندهُ اكثر من خمسة عمال . ولم تقع اليأسة باحدٍ في زماني ولم يجع احد مدة حكمي لانني كنت احرث كل ارض ولاية ماح في ايام القحط الى حد تخومها الشمالية والجنوبية فاشبع الشعب كله ولا ابقي احدًا جائعًا . وكنت اعطي الارملة كما اعطي ذات الزوج ولم اميز بين الرفيع والوضيع في كل عطاياي واذا وفى الريُّ واغنى الناس لم اكن ازيد الضرائب عليهم ".

وفي هذا المدفن وفي كل المدافن التالية صور طيور وحيوانات اهليَّة وبريَّة وانهار وقواربه وشباك واناس يعملون اعمالهم المختلفة كالحرث والزرع والصيد وتربية المواشي وقصاص المجرمين وغير ذلك مما يطول شرحهُ وهناك بئرٌ عميقة مربعة الجوانب ينزل منها الى سرداب طويل متصل بغرفة فسيحة فيها ناووس الميت والغرفة العليا معبد يوضع فيهِ تمثال الميت ويجتمع فيهِ ذووهُ لاقامة الشعائر الدينيَّة

ويتلو هذا القبر قبر خنمو حتب والي ولاية ماح وكان معاصرًا لامنحمات الملك الثالث من ملوك الدولة الثانية عشرة وهو ليس ابن امني المدفون في القبر الاول بل متصل به بالنسب من جهة امهِ . وفي الجدار الشمالي من جدران هذا القبر امران يستحقان الاعتبار الاول قديم وهو صورة سبعة وثلاثين شخصًا من شعب سامي يسمى شعب عمو وامامهم صورة كاتب مصري اسمهُ نفرحتب وقد كتب الكلام الآتي "انهُ في السنة السابعة من ملك اوسرتسن الثاني اتى سبعة وثلاثون نفسًا من شعب عمو بالكحل الى خنمو حتب" . ويجانبهِ رجل مصري آخر يتقدم هؤلاء الغرباء الى سيدهِ خنمو حتب وهو واقف وكلابهُ بجانبهِ . اما هؤلاء الغرباء فآتون بالهدايا من المعزى والغزلان . والرجال منهم ثمُّ الانوف سود اللحى ولحاهم دليلٌ على انهم غرباء لان المصريين كانوا يحلقون لحاهم . وثياب الرجال والنساء معلمة وموشّاة بالوان كثيرة . وقد ظنَّ البعض ان هذهِ الصورة تشير الى نزول بني اسرائيل الى مصر ولكن ذلك بعيد عن الصحة لان القبور انشئت قبل ذلك العهد بسنين كثيرة

هذا هو الامر الاول والثاني ان بعض المولعين بالمال ولونهًا واختلاسًا حفروا حول اهرام الملوك واستخرجوا بعضها فشوّهوا وجه اجمل اثر من آثار الاولين بازاميلهم لكي يزينوا دارًا للخف من دور الاوربيين . وفيما انا انظر الى ذلك اسفًا متكدرًا قال لي الخواجه كوك

أتدري من فعل هذه الفعلة الشنعاء قلت لعل الجهلاء قال بل احد العلماء من المنتمين لحفظ هذه الآثار . ثم قص عليّ واقعة الحال فقلت صبرًا على مجامر الكرام . على اني رأيت في دار هذا القبر رجلين من نبهاء الانكليز يشتغلان في رسم ما فيه من الرسوم على الورق الشفاف وتصويرها بالآلة الفوتوغرافية حتى اذا ذهبت العين يبقى الاثر . وهما يتعلان ذلك على نفقة لجنة النقب المصرية التي زاحت النقاب عن كثير من الآثار

والى الجنوب من هذا القبر قبور كثيرة احسنها قبر منقفة قائم على عمد مضلعة كل عمود منها اربع اساطين ضمت معًا كأنها سوق البيلوفر وقد اجتمعت زهراتها الاربع فكان منها تاج العمود . وجدران القبر منقطة بالرسوم والنقوش وصور الطيور والبهائم والالعاب الرياضية والاعمال اليدية والحرف المختلفة فهناك الحلاق يحلق رأس رجل امامه والزجاج ينفخ زجاج اناءه والصائغ يصوغ حلاه والخبّاز يخبز غلايله والمصوّر يزوّق صوره والحائك يحوك نسيجه ثم عدنا الى الباخرة فسارت بنا امام خرائب شوانتن وهي المدينة التي بناها امنوفس الرابع في المكان المسمى الآن تل العمرنا وذلك ان امنوفس الثالث تزوج اميرة من بين المتهرين ربت بابنة امنوفس الرابع على كراهة العبادة المصرية فعصت البلاد عليه واضطر ان يبني مدينة شوانتن ويسكن فيها هو وامه وبناته . وقد كشفت آثار هذه المدينة في تل العمرنا منذ ثلث سنوات واتينا على شيء من وصفها

الرسالة الثالثة من اسيوط الى الاقصر

دخلنا اسيوط صباح السبت (١٣ دسمبر) ولم نلبث ان شاهدنا الاصدقاء والخلان فيها حتى ذهبنا الى الجبل المطل عليها لنشاهد ما فيه من المدافن القديمة المشهورة وكنا نعثر في اثناء الطريق ببرديّ الامولات المحنطة بين بطن مبقور وصدر مشقوق وجمجمة مكسورة فتردد في خاطري قول ابي العلاء المعري حيث قال

خفف الوطء ما اظن اديم الـ ـ ارض الا من هذه الاجساد
وقبيح بنا وان قدم العهـ ـ ـد هوان الآباء والاجداد

وبعد بضع دقائق بلغنا مدخنًا كبيرًا يسمى هنا اسطبل عنتر فاذكرني ذلك كهفًا كبيرًا في بني حسن يسمى هناك اسطبل عنتر ايضًا وهو تحريف سيبوس ارطميدس نسبة الى الالاهة ارطميس التي كانت تعبد فيه . اما الكهف الذي فوق اسيوط فمدفن من اكبر المدافن التي شاهدناها الى الآن فيه غرفة فسيحة طولها ٣٧ خطوة وعرضها ١٧ خطوة منحوتة في صخر كلسي وعلى جدرانها ولاسيما الرواق الذي امام بابها كتابات هيروغليفية وصور حربية وسياسية

منقوش بالوان بديعة ولكن اكثر ما فيها من النقش والكتابة قد طمس ولا يقرأ منهُ الاَّ القليل . ويظهر من هذا القليل ان هذه الغرفة كانت مدفنًا لرجلٍ عظيم في عهد الدولة الثالثة عشرة من الدول المصريَّة . وفوق هذا القبر قبور أُخرى كثيرة . واذا زاد اهتمام اهالي اسيوط ببناء بيوتهم من الحجر فقد لا تمضي سنون كثيرة حتَّى تمحي هذه المدافن كلها اثرًا بعد عين الاَّ اذا اخذتهم الحميَّة على حفظها

واسواق اسيوط القديمة ضيقة ومبانيها حقيرة ولكن بيوتها الجديدة رحبة جميلة مبنيَّة على الاسلوب الايطالي المتَّبع الآن في مباني القاهرة والاسكندريَّة . واسمها قديم جدًّا وهو بالسان المصري القديم صيوط وسمَّاها اليونان ليكوبوليس اي مدينة الذئب لان اهاليها كانوا يصورون لمعبودهم رأس ذئب ويقال ان الذئاب كانت كثيرة في الجبل المجاور لها ولم يزل فيهِ قليلٌ منها . ورأيت عند سفح الجبل رجلا معهُ ضبع كمٌ فيها بكاملهِ وهو يقودها ويسومها العذاب فرجةً لناظرين وفي مخططة كالضبع الشاميَّة ولكنها اصفر منها قدًا واشد سوادًا وسواد خطوطها فاحم ولا تختلف في ما سوى ذلك عن الضبع الشاميَّة

وذكر ابو الفداء اسيوط فقال في بضم الالف وسكون المهملة وضم المثناة من تحت وفي آخرها طاء مهملة كذا ضبطها السمعاني ورأيت اسيوط في شعر ابن الساعاتي بغير الف في قولهِ

لله يومٌ في سيُوطَ وليلةٌ عمر الزمان بمثلها لا يغلطُ
بتنا بها والبدر في غلوائهِ ولهُ بجنح الليل فرعٌ اشمطُ
والطيرُ تقرأُ والغدير صحيفةٌ والريح تكتب والغمام ينقطُ

ومررنا في طريقنا على ابو تيج وهي المعروفة عند كتاب اللاتين بابوتس وقد ذكرها ابو الفدا ايضًا وقال انها في البر الغربي من النيل وبها الخشخاش الكثير الذي يعمل منهُ الافيون . ثم دارت بنا السفينة من امام جبال شاهقة تسمَّى بالجو الكبير كان في سفحها الجنوبي هيكل انتيوس فجرفها النيل ولم يبقِ منها شيئًا . ومررنا من امام طهطا وسوهاج واخميم والمنشاة وجرجا والبلينا وقرشوط وقنا وقوص ونقاده . وهذه المدن كلها حسنة البناء محاطة بالنخيل وفي اكثر بيوتها ابراج للحمام في شكلٍ هرمي مقطوع وكل برج منها ثلاث طبقات فيها بيوت الحمام . ومن الغريب ان بيوتًا كثيرة من بيوت هذه المدن تميل في شكلها الى الشكل الهرمي المقطوع الذي كان متبعًا عند المصريين القدماء . وقد شاهدنا السكك الزراعيَّة على جانبي النيل والناس يمشون عليها بهائمهم ولسان حالهم يشكر الحكومة على اهتمامها بانشاء هذه السكك . والارض على الجانبين خضراء تبشر بالخصب والنماء

ستأتي البقية